تاريخ فكرة إعجاز القرآن

منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر؛ مع نقد وتعليق

- ٨ -

٢ — المراكشي :

يتكلم المراكشي - الذي قال صاحب الكشف في مادة ضياء إنه كان حياً في سنة ٨٣٧ هـ - على الإعجاز في كتابه «شرح المصباح» وذكر رأيه السيوطي فقال : « قال المراكشي في شرح المصباح : (الجهة المعجزة في القرآن تعرف بالتفكير في علم البيان وهو كما اختاره جماعة في تعريفه ما يحترز به عن الخطأ في تأدية المعنى وعن تعقيده ويعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه لمقتضى الحال لأن جهة إعجازه ليست مفردات ألفاظه وإلا لكانت قبل نزوله معجزة ولا مجرد تأليفها وإلا لكان كل تأليف معجزاً ولا إعرابها وإلا لكان كل كلام معرب معجزاً ولا مجرد أسلوبه وإلا لكان الابتداء بأسلوب الشعر معجزاً والأسلوب الطريق ولكان هذيان مسيلمة معجزاً ولأن الإعجاز يوجد دونه أي الأسلوب في نحو « فلما استيئسوا منه خلصوا نجيا » « فاصدع بما تؤمر » ولا بالصرف عن معارضتهم لأن تعجبهم كان من فصاحته ولأن مسيلمة وابن المقفع والمعري وغيرهم قد تعاطوها فلم يأتوا إلا بما تمجه الأسماع وتنفر منه الطباع ويضحك منه في أحوال تركيبه وبها - أي بتلك الأحوال - أعجز البلغاء وأخرس الفصحاء فعلى إعجازه دليل إجمالي وهو أن العرب عجزت عنه وهو بلسانها فغيرها أحرى ودليل تفصيلي مقدمته التفكير في خواص تركيبه ونتيجة العلم بأنه تنزيل من المحيط بكل شيء علماً» .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فالمراكشي لا يخرج في رأيه هذا عن رأي صاحب الطراز وبشار كما في هذا الرأي أكثر المتأخرين إلا أنه يقيد ما يقصده بعلم البيان أكثر من صاحب الطراز فهو يخرج فصاحة الألفاظ هنا من حيّز الإعجاز بينما يثبتها هذا . والذي يهمه من البيان صحة التأدية والوضوح ومراعاة مقتضى الحال وتحسين الكلام بينما نرى أن مفهوم البلاغة والفصاحة في نظر صاحب الطراز كان أوسع . ونراه ينفي الصرفة التي قال بها الأصبهاني الى جانب البلاغة .

٣ — السيوطي :

يطيل السيوطي الكلام على الإعجاز في كتابه الإتقان (ج ٢ ص ١٩٦ وما بعدها) ويأخذ أقوال من تقدمه من مصادرها ويضمّ بعضها الى بعض دون أن يتعرّض لها أو لأكثرها بنقدٍ كافٍ فالصرفة إلى جانب القول بالبلاغة إلى جانب القول بالإخبار عن المغيبات ... فلا ندري ما يأخذ به منها وما يدع وكأنه لا يرى ضرورة لأكثر من عرضها .

ونرى له رأياً في الإعجاز يعرضه بتفصيل ويستشهد عليه بالآيات والأحاديث وآثار السلف أثناء كلامه عن العلوم المستنبطة من القرآن وهو أن القرآن مصدر لجميع العلوم : دينية ودنيوية وهنا نراه يتوسع فيما جاء به الغزالي قبله من آراء وأخبار في هذا الشأن وقد رأينا الزركشي يقول بها أيضاً كما رأينا الشاطبي ينكرها أشد الإنكار .

يبدأ السيوطي في الإتقان بنقل كلام ابن العربي في معنى المعجزة والإعجاز ثم كلام العسقلاني (٨٥٢) في كتابه فتح الباري وهو لا يخرج عن كلام ابن العربي الذي رأيناه آنفاً ثم يورد آيات التحدي وترتيبها بحسب النزول . وترتيبه الذي يذكره يوافق التدرج في التحدي من الأكثر الى الأقل ، وقد رأيناه ، ثم يذكر حال قريش وأقوالهم بعد هذا التحدي وحديث الوليد بن المغيرة حين سمع القرآن ثم قال فيه « إنه سحر يؤثر » ثم رأي الجاحظ في المعركة الكلامية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والعملية بين العرب والقرآن ووصفه الموجز لها ثم يتكلم عن المتحدى فيه ما هو أهو الكلام القديم الذي هو صفة الذات، فيكون العرب قد كلفوا ما لا يطاق وبه وقع عجزهم. ويردّ هذا الرأي لأن ما لا يمكن الوقوف عليه لا يتصور التحدي به، أم هو الدالّ على القديم أي الألفاظ وهو رأي الجمهور الذي يراه السيوطي صواباً ثم يذكر رأي النظام في الصرفة ويردّه بما ردّه به سابقوه من النقد ثم يذكر أقوالاً عدة يقول إنه لا يعتدّ بها كالقول بأن الكل قادرون على الإتيان بمثله وإنما تأخروا عنه لعدم العلم بوجه ترتيب لو تعلّموه لوصلوا اليه به والقول بأن العجز وقع من معاصري النبي وأما من بعدهم ففي قدرتهم الإتيان بمثله. ثم يذكر القول بأن وجه إعجازه ما فيه من الإخبار عن الأمور المستقبلة وأن ذلك لم يكن من شأن العرب وقول آخرين بأنه ما تضمنه من الأخبار عن قصص الأولين وسائر المتقدمين حكاية من شاهدها وحضرها والقول بأنه ما تضمنه من الإخبار عن الضمائر من غير أن يظهر ذلك منهم بقول أو فعل كقوله: «إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا» «ويقولون في أنفسهم لولا يعذّبنا الله».

ثم ينتقل الى ذكر خلاصة رأي القاضي أبي بكر الباقلاني في وجه الإعجاز ثم قول الإمام فخر الدين الرازي ثم قول الزملكاني ثم ابن عطية ثم حازم القرطاجني ثم المراكشي ثم الأصبهاني ثم السكاكي ثم رأي بندار الفارسي كما يرويه أبو حيان التوحيدي ثم الخطابي ثم ابن سراقة ثم الزركشي ثم الرمّاني ثم القاضي عياض ويختم باختلاف العلماء في مقدار المعجز وفي الذين تحداهم القرآن أهم الإنس فقط أم الإنس والجن أم الإنس والجن والملائكة ويذكر قولاً مطولاً للغزالي في معنى قوله تعالى: «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً»، ومنه قول الغزالي بأن القرآن مسوق لمعنى واحد وهو دعوة الخلق الى الله تعالى وصرفهم عن الدنيا الى الدين ثم يذكر السيوطي في آخر فصل الإعجاز ما يبين جمال ألفاظ القرآن فيورد ألفاظاً في القرآن خفيفة على النطق، موسيقية في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

السمع ، ويقارنها مع مرادفاتها في اللغة لبيان حسن الانتقاء في ألفاظ القرآن وهي ملاحظة موسيقية بحتة تقدر له وتذكرنا بكلام ابن الأثير في المثل السائر على بعض طرق القرآن في تجميل الألفاظ حينما يقارن بين استعمال المتنبي لكلمة تؤذي في شعره وبين استعمال القرآن والحديث لها الى جانب غيرها من الكلمات .

* * *

القرن الثالث عشر

أتخطى بعد السيوطي سنين طويلة ساد فيها الجمود والجهل في ظل الحكم التركي لأصل الى الألوسي (١٢٧٠) .

الألوسي :

يتكلم الألوسي في مقدمة تفسيره أثناء تفسير آيات التحدي على الإعجاز فيذكر في المقدمة وجوه الإعجاز التي قال بها العلماء من إعجاز في الأسلوب وفي النظم من حيث المقاطع والفواصل ومن إعجاز بالبلاغة والفصاحة والإخبار عن الغيب والصرفة والكلام القديم ويذكر حجج أصحابها والردود الناقضة لها بما لا يخرج عما ذكر في الطراز ثم يذكر رأي علي الآمدي وهو أن الإعجاز بجملة القرآن وبالنظر الى نظمه وبلاغته وإخباره عن الغيب ثم يقدم رأيه الخاص في الإعجاز وهو «أن القرآن بجملته وأبعاضه حتى أقصر سورة منه معجز بالنظر الى نظمه وبلاغته وإخباره عن الغيب وموافقته لقضية العقل ودقيق المعنى وقد يظهر كلها في آية وقد يستتر البعض كالإخبار عن الغيب ولا ضير ولا عيب فما يبقى كاف وفي الغرض واف» .

ويدلل على رأيه بما ذكره السيوطي من أقوال العلماء الذين أخذوا بهذا الرأي وهو ينقل ما ذكره السيوطي بالحرف تقريباً . ويتم كلامه في المقدمة بأن المشهور عند الناس أن إعجازه في نظمه وبلاغته لأن التفاوت فيهما واضح جداً ثم يورد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الحجة على أن الإخبار بالغيب والموافقة لقضية العقل ودقيق المعنى يمكن أن يعبر عنها بلغة القرآن وغيره فليس في ذلك إعجاز - « فاللغة العبرية عبرت عن نفس المعاني مثلاً » - فيكون رأيه النهائي إذن في المقدمة أن إعجاز القرآن في نظمه وبلاغته قبل ما عداهما وأضعف الآراء عنده الصرفة .

ورأيه فيما عدا الصرفة ينطبق كل الانطباق على رأي الأصبهاني في تفسيره إلا أن الأصبهاني جمع بين الصرفة والقول بالنظم والبلاغة وهما نقيضان وقد سلم قول الألوسي من تناقضهما .

وفيما عدا المقدمة يتكلم الألوسي على أمور تتعلق بالإعجاز عند تفسيره آيات التحدي فيقول في تفسير آية « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » في سورة الطور إن قريشاً كانت تدعى أهل الأحلام ويقرّ لها بالفضل في العقل ويورد قول الجاحظ في هذا وهو يرفض هذه المميزة لقريش لأنهم في ردّهم على النبي وقعوا في التناقض فقالوا كاهن وشاعر وذلك منه يتطلب العقل وقالوا مجنون وهو قول يناقض الأول ويذكر في تفسير آية : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن الخ » في سورة الإسراء أن تحدي القرآن لهم إنما جاء لأنهم ادّعوا أن في استطاعتهم أن يأتوا بمثل ما جاء به النبي ولأنهم طلبوا منه معجزات حسية كمعجزات غيره من الأنبياء ثم يقول إن التحدي بعشر سور وقع قبل التحدّي بسورة وذلك أثناء تفسيره آية « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات الخ » في سورة هود وهنا نراه يرد على القول المنسوب الى ابن عباس وهو أن التحدي كان بعشر سور معينة هي العشر الأولى من ترتيب القرآن الحالي فينفيه بأن سورة هود مكية فكيف تحيل العرب على معارضة عشر سور مدنية لم تنزل بعد ثم يذكر ترتيب التحدي في نظر ابن عطية والمبرد وقد ذكرته قبل في الكلام على ترتيب آيات التحدي وخبر ابن الضريس عن ابن عباس القائل بأن التحدي وقع أولاً بسورة مثل القرآن في البلاغة والاشتمال على المغيبات

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والأحكام وما شاكلها فلما عجزوا تحداهم بعشر سور مثله في النظم وإن لم تشتمل على ما اشتمل عليه وقال إن هذا الرأي ضعفه صاحب الكشف لأنه لا يطّرد في كل سور القرآن ولأن السورة ولو كانت متقدمة النزول إلا أنها لما نزلت على التدريج جاز أن تتأخر تلك الآية عن هذه ولا ينافي تقدم السورة على السورة ثم يذكر تأييد الشهاب لرأي المبرد .

ويقول في تفسير آية التحدي في سورة البقرة «وإن كنتم في ريب مما نزلنا الخ» ما معناه أن إعجاز القرآن حجة لرسالة النبي وما عدا ذلك من الآراء خطأ فهو يقول : « بعد أن قرّر أمر التوحيد عقّب بإثبات رسالة النبي من حيث إعجاز القرآن وفي التعقيب إشارة الى الرد على التعليمية الذين جعلوا معرفة الله تعالى مستفادة من معرفة الرسول والحشوية القائلين بعدم حصول معرفته سبحانه إلا من القرآن والأخبار» . وهنا نرى مذهبه الإشاري في التفسير وقوله الضمني بإعجاز القرآن العلمي الغيبي وإلا فكيف يرد القرآن على فرقتين عن طريق الإشارة أو عن طريق التصريح ولم تكونا قد وجدتا حين نزوله ثم نرى أن هاتين الفرقتين تعاكسان رأي السنة في أن إعجاز القرآن حجة الرسالة لا العكس .

* * *

القرن الرابع عشر

١ — النزعة العلمية :

نلاحظ بعد زمن الألوسي قوة النزعة العلمية في تعليل إعجاز القرآن فقد رأينا كيف قال بها الغزالي وحاولها الفخر الرازي في تفسيره وقال بها السيوطي ولكنها لم تشتد أبداً اشتدادها في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وبداية القرن العشرين وأترك الكلام لأستاذي أمين الخولي ليتحدث عنها قال (التفسير معالم حياته ومنهجه اليوم ، الخولي ص ٢٠) : « واستمرت هذه النزعة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في التفسير العلمي وأصبحت فيما يبدو وجهاً من تعليل إعجاز القرآن أو بيان صلاحية الإسلام للحياة وإذا كان هذا التفسير قد ظهر في مثل محاولة الفخر الرازي ضمن تفسير القرآن فقد وجدت بعد ذلك كتب مستقلة في استخراج العلوم من القرآن وتتبع الآيات الخاصة بمختلف العلوم وراجت هذه الفكرة في العصر المتأخر فترى كتاب (كشف الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية) لمحمد بن أحمد الاسكندراني الطبيب من أهل القرن الثالث عشر الهجري وكتاب (تبيان الأسرار الربانية في النبات والمعادن والخواص الحيوانية) له أيضاً وقد طبع الأول في القاهرة سنة ١٢٩٧ هـ والثاني في الشام سنة ١٣٠٠ هـ ورسالة فكري باشا وزير المعارف المصرية سابقاً في مقارنة بعض مباحث الهيئة بالوارد في النصوص الشرعية (طبعت بالقاهرة سنة ١٣١٥ هـ) .

وانحاز الى الفكرة من رجال الاصلاح الاسلامي السيد عبد الرحمن الكواكبي فاستخرج من القرآن مكتشفات حديثة بقول إنه ورد التصريح أو التلميح بها في القرآن منذ ثلاثة عشر قرناً وبقيت خافية لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن . وتعرض الأديب المصري مصطفى صادق الرافعي لها في كتابه (إعجاز القرآن) وهو يجنح الى احتواء القرآن على جمل العلوم وأصولها إذ ينقل كلمة السيوطي في الإتقان حول أخذ الباحثين علومهم منه ويعلق على استخراج علم المواقيت من القرآن فيقول : «وإذا أطلق حساب الجمل في كلمات القرآن كشف منه كل عجائب العصور وتواريخها وأسرارها ولولا أن هذا خارج عن غرض الكتاب لجئنا منه بأشياء كثيرة من القديم والحديث» (ص ١٥١ من إعجاز القرآن) .

ويشير الرافعي الى استخراج محدثات الاختراع وغوامض علوم الطبيعة من القرآن ؛ وأكثر من جمع في هذا وأطال المرحوم الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره ؛ ومما يتصل بهذا من قرب ما ظهر من مؤلفات علمية عني أصحابها عناية خاصة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بهذا الجانب وتوخوا هذا التطبيق كمحاضرات المرحوم الأستاذ محمد توفيق صدقي في سنن الكائنات وما أشبهها » .

وترجع هذه الفورة في التفسير العلمي الى رد الفعل الذي أحدثه الاتصال بأوربا وامتزاج الثقافة العربية الإسلامية التي كانت نائمة بالثقافة الأوربية الناضجة وما بهر العلماء من علوم ومخترعات حديثة فحاولوا أن يرجعوا الى تراثهم الاسلامي العربي يستنبطون منه أصول هذه العلوم وخشوا إذا هم لم يفعلوا أن يبدو القرآن ضئيلاً في أعين متبعيه وأنصاره وأن تتزعزع العقيدة فيه من قلوب الناس أمام ما يرونه من معالم المدنية الحديثة فحاولوا أن يبينوا أن القرآن احتوى هذه العلوم وأشار الى هذه المخترعات قبل أن يعرفها أهلها أنفسهم بثلاثة عشر قرناً واستفادوا في هذه الناحية من الكلمات والجمل التي يمكن أن تتحمل تأويلات واسعة ومما في طبيعتها من إمكان اتساع الخيال .

٢ — الشيخ محمد عبده :

وللإمام المصلح الشيخ محمد عبده (١٩٠٥) كلام في الإعجاز أورده في كتابه « رسالة التوحيد » (ص ٩٦ ط بيروت) وهو يرى أن القرآن معجز من عند الله لأنه صدر عن نبي أمي ولأنه يخبر عن الغيب ولتقاصر القوى البشرية دون مكانته فيقول إنه اذا اعترض معترض بأن العجز حجة على من عجز لا على غيره من الناس فقد يجد هؤلاء إلى إبطاله أقرب سبيل ، رُدّ عليه بأن العجز هنا هو غير العجز في حالة إفحام الدليل فإن إعجاز القرآن برهن على أمر واقعي وهو تقاصر القوى البشرية دون مكانته . وإعجاز القرآن يقوم عنده على بلاغته وليس في رأيه جديد وما هو إلا اختصار لرأي الباقلاني .

(يتبع) نعيم الحمصي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net